أيُّها الطِفلُ العَرَبِيُّ لكَ تَارِيخٌ عَرَبِيٌّ مُشَرِّفٌ، فَاقْرَأْ، وَتَعَلَّمْ، واعْمَلْ.

سلطانُ العلماءِ وبائعُ الملوكِ

العزُّ بنُ عبدِ السّلامِ

رسم: عاصف نصري

بقلم

د. سناء شعلان

العِزُّ بنُ عبدِ السّلامِ

(سلطانُ العلماءِ وبائعُ الملوكِ)

فقرٌ وأحلامٌ

في بيتٍ فقيرٍ لم يعرفْ إلاّ الحرمانَ والبؤسَ والشّقاءَ وُلِدَ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ السّلامِ بن أبي القاسمِ بن الحسنِ بن محمدٍ بن المهذّبِ الدّمشقيّ، المكنّى بأبي محمدٍ (المسمّى بأبيّ محمدٍ) عزِّ الدّين، المغربيّ الأصلِ، وذلكَ في دمشق عام ٥٧٧هـ، كانَ أبوه عبدُ السّلامِ فقيراً جداً، وكانَ يجوبُ الأسواقَ بحثاً عن عملٍ قلّما (قليلاً) يجدُهُ مقابلَ النّزرِ (القليلِ) منَ المالِ.

وشبَّ (أصبحَ شاباً) عبدُ العزيزِ الذي اشتهرَ باسمِ عزِّ الدّينِ ومِن ثمَّ باسمِ العزِّ في غياهبِ (ظلماتِ) الفقرِ الطّاحنِ (الشّديدِ)، وصحبَ أبوهُ؛ ليساعدَهُ في حملِ الأمتعةِ، ونقلِ الأشياءِ الثّقيلةِ، وتنظيفِ أمامَ متاجرِ السّوقِ، في حينِ كانَ يصحبُهُ في أوقاتِ الصّلاةِ إلى الجّامعِ الأمويِّ؛ ليصليا فيهِ. وهناكَ صدفَ (قابلَ صدفةً) العزُّ أحدَ شيوخِ (رجلِ الدّينِ عندَ المسلمين) الجّامعِ، الذي أُعجبَ بالعزِّ؛ لما يبدو عليهِ من مخايلِ (دلائل وعلاماتِ) النّجابةِ (الذكاءِ الشّديدِ)، كما أُعجبَ ببشاشتِهِ (بابتسامتِهِ الدائمةِ) على الرّغمِ من فقرِهِ الطّاحنِ، فدعا اللّه أنْ يباركَ لَهُ.

وما بينَ العملِ الشّاقِ الذي يقومُ به العزُّ الفتى الوسيمُ، جميلُ القسماتِ (ملامح الوجهِ)، ضئيلُ الجسدِ (نحيفٌ)، والصّلاةِ بانتظامٍ في الجّامعِ الأمويِّ كانَ يدهشُهُ ذلكَ التناقضُ بينَ الغنى الفاحشِ (الشّديدِ) الذي ينعمُ (يَسْعدُ) به الأغنياءُ،

أصحابُ الملابسِ الزّاهيةِ، والسّيوفِ المرصّعةِ بالذّهبِ، والجيادِ الأصيلةِ، والقصورِ ذاتِ الحدائقِ الفيحاءِ (المتسعةِ ذاتِ الرائحةِ الطيبةِ)، والفقر الذي يُغرقُ الكثيرَ من أمثالِهِ في الحرمانِ، فيقتاتونَ (يأكلونَ) الأسى والأحلامَ، وكانَ يتساءلُ بأسىً (بحزنٍ شديدٍ): ما ذنبُهُ وأمثالُهُ من الصّبيةِ الفقراءِ كي يُحرموا من العلمِ؟! فلا يجدُ إجابةً شافيةً (مقنعةً) على سؤالِهِ الملحِّ (كثيرِ التكرارِ) الحزينِ.

وزادَ شقاءُ (بؤسُ) العزِّ عندما ماتَ والدهُ على حينِ غِرَّةٍ (بشكلٍ مفاجئٍ)، فوجدَ نفسَهُ يتيماً، لا مكانَ يأويه (يعيشُ فيهِ)، ولا يدَ حانيةً (حنونةً) تمسّدُ (تمسحُ) على رأسِهِ، فلجأَ إلى الشّيخِ الذي دعا لهُ في الماضي؛ يلتمسُ (يبحثُ) عندَهُ المساعدةَ في الحصولِ على عملٍ يقتاتُ منهُ (يعيشُ منْ دَخلِهِ)، ومكان يبيتُ (ينامُ) فيهِ، فتوسّطَ لَهُ الشّيخُ، وألحقَهُ بالجّامعِ الأمويّ؛ ليقومَ بأعمالِ النّظافةِ، وبحراسةِ نعالِ (أحذيةِ) المصلّين الذين يتركونَهَا على بابِ الجّامعِ، وسُمحَ له بأن ينامَ في أحدِ دهاليز (جمعُ دهليز، وهو الممرُّ الواصلُ بينَ البابِ والداخلِ) الجّامعِ على الرّخامِ الباردِ.

ولكنَّ حلمَ العزِّ لمْ يفارقهُ، وظلَّ يحلمُ بالانضمامِ إلى حلقاتِ طُلاّبِ العلمِ على الرّغمِ من فقرِهِ الشديدِ، وكثيراً ما كانَ يصرفُ همَّهُ (يستمعُ باهتمام) إلى ما يقولُهُ الشيوخُ في الحلقاتِ، فيثيرُ كلامَهُم خيالَهُ، ويلهبُ أشواقَهُ (يشوّقُهُ) إلى دنيا أخرى، لا يجوعُ فيها ولا يعرى. وكانَ ثوبُهُ المُمزّقُ هو ما يمنعُهُ من الانضمامِ إلى تلكَ الحلقاتِ فضلاً (إضافةً إلى) عن ضيقِ ذاتِ يدِهِ (فقرِهِ)، إلى أن تشجّعَ يوماً، وترَكَ مكانَهُ في حراسةِ الأحذيةِ، وتسلّلَ (دخلَ بهدوءٍ) إلى إحدى حلقاتِ العلمِ في الجّامعِ الأمويّ، فرآه شيخُ الحلقةِ، ونهرَهُ (زَجَرَهُ وأغضبَهُ)، ثم طردَهُ من الحلقةِ؛ لأنّهُ يلبسُ ثوباً ممزّقاً لا يليقُ (لا يناسبُ) بطالبِ علمٍ، فجرى (ركضَ مسرعاً) العزُّ إلى بابِ الجّامعِ، وشرَعَ (بدأَ) يبكي بحرقةٍ، فصادفَ أنْ رآهُ الشّيخُ الذي ألحقَهُ بخدمةِ الجّامعِ، وهو الإمامُ الفخرُ بنُ عساكر، وهو حينئذٍ (في ذلكَ الوقتِ) صاحبُ حلقةِ الفقهِ الشّافعيّ، وسألَهُ عما يبكيهِ، فروى لَهُ العزُّ ما جرى لهُ حزينَ القلبِ، كسيفَ الخاطرِ (شديدَ الحزنِ)، فطيّبَ الشّيخُ خاطرَهُ (قالَ لَهُ كلاماً لطيفاً)، وداعبَه (لاعَبهُ) بطيّبِ الكلامِ، ووعَدهُ بأن يُلحقَهُ بحلقاتِ العلمِ والتعلّمِ، لعلّهُ يكونُ يوماً عالماً يفيدُ الأمّةَ والمسلمين، فكادَ يطيرُ قلبُ العزِّ فرحاً بهذا الوعدِ.

وبرَّ الشّيخُ ابنُ عساكر بوعدِهِ (نفّذَ ما وعدَ بِهِ)، وألحقَ العزَّ بحلقاتِ تعلّمِ القراءةِ والكتابةِ والخطِّ وحفظِ القرآنِ على نفقتِهِ الخاصةِ، وتكفّلَ بملبسِهِ وبحاجاتِهِ، فاكبَّ (أقبلَ عليهِ وشُغلَ بِهِ) العزُّ على العلمِ، لا ينقطعُ عنْهُ، ولا يخجلُ من أن يجلسَ إلى حلقاتِ علمٍ كلٌّ من فيها صبيةٌ، وهو فتى أكبرُ منهم سِنّاً، بل إنّ ذلكَ قد ساعدَهُ على أن يحذقَ (يتقنَ) ما يتعلّمُ في أقصرِ وقتٍ، وبفهمٍ أعمق، حتى أنّهُ قد حفظَ واستوعبَ كتابَ "التنبيه" في الفقهِ الشّافعيِّ في ثلاثةِ أيامٍ فقط، مما أثارَ إعجابَ شيخِهِ ابن عساكر بِهِ.

وقِيلَ إنَّ العزَّ سمعَ نداءً في حلمِهِ يقولُ لَهُ: "يا ابنَ عبدِ السّلامِ، أتريدُ العلمَ أم العملَ، فقالَ: بل العمل؛ لأنّهُ يهدي (يقودُ) إلى العلم". ولماّ أصبحَ روى لشيخِهِ ابن عساكر هذا الحلمَ، فقالَ لَهُ الشّيخُ مسروراً: "لقدْ بلغتَ مبلغَ الرجالِ (أصبحتَ رجلاً)، وهذا النداءُ هاتفٌ (رسالةٌ) من السّماءِ، يأمركَ بأن تهبَ نفسَكَ للعلمِ".

وقدْ وهبَ (أعطى) العزُّ نفسَهُ للعلمِ، ولزمَ (رافقَهُ بشكلٍ دائمٍ) شيخَهُ ابن عساكر يتعلّمُ منهُ، فحفظَ القرآنَ، وأتقنَ القراءةَ والكتابةَ والخطَّ الحسنَ والفلسفةَ، وأطّلعَ على الكثيرِ من المترجماتِ في حقولِ علمِ الطبيعةِ والطبِّ والكيمياءِ والرّياضياتِ والفلكِ، وفقهَ (فَهِمَ) المذهبَ الشّافعيّ، كما أتقنَ علومَ اللّغةِ: الصّرفِ والنّحوِ، وحفظِ الشِّعرِ، وكانَ له معرفةٌ كبيرةٌ بعلمِ الكلامِ (العلم الذي يتكلّمُ عن اللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ).

وقدْ تأثّرَ عزُّ الدّينِ بشيخِهِ ابن عساكر، وأخذَ عنهُ كثيراً من صفاتِهِ الحميدةِ (الجيدةِ)، إذ كانَ شيخاً زاهداً (من يرضى بالقليلِ)، وورعاً (يخافُ اللهَ)، وواسعَ المعرفةِ، وكثيرَ الصدقاتِ، وخطيباً لا يخشى في اللهِ لومةَ لائمٍ، يقولُ الحقَّ مهما كلّفَهُ الأمرُ، وهو في الوقتِ نفسِهِ شديدُ الحياءِ (الخجلِ الشّديدِ)، مرحاً (يحبُّ الضّحكَ).

وفي عامِ ٥٩٧هـ سافرَ العزُّ إلى بغداد؛ ليلقى فيها شيخاً قِيلَ إنَّ عندَهُ من علمِ الحديثِ ما ليسَ عندَ أحدٍ من علماءِ دمشق مثلَهُ، وقدْ التقى بِهِ، وسمعَ مِنهُ، وحفظَ الحديثَ عنهُ، ثم عادَ من جديدٍ إلى دمشق؛ ليكملَ تلقّي علومِهِ على أيدي كبارِ علمائِها، وهم: جمالُ الدّينِ بنُ الحرستانيّ، وعبدُ الصّمدِ المرستانيّ، وسيفُ الدّينِ الآمديّ، فقد اجتمعَ في دمشق في ذلكَ الوقتِ جهابذةٌ (جمعُ جِهْبذٍ، وهو العالمُ الخبيرُ المجيدُ) العلماءُ البارعين في فنونِ (أنواعِ) العلمِ.

الحلمُ يصبحُ حقيقةً

عكفَ العزُّ نفسَهُ على العلمِ (أقبلَ على العلمِ ولم ينصرفْ عنهُ) وعلى مجالسِ العلماءِ، فبزَّ أقرانَهُ (تفوّقَ عمّن يدرسونَ معهُ)، وتقدَّم صفوفَ طلاّبِ العلمِ، مما أثارَ إعجابَ شيوخِهِ بِهِ. ولم يكدْ ينتهي من الدراسةِ على يديّ شيخِهِ الفخرِ بن عساكر وغيرِهِ من الشيوخِ في جامعِ دمشق، حتى أجازوهُ (سمحوا لهُ بالتدريسِ)، وعُيّنَ مدرساً في دمشق، ثم انتقلَ إلى مدرسةٍ أعلى، يُدرّسُ الفقهَ وأصولَهُ على المذهبِ الشّافعيّ، وكانَ هو المذهبُ السّائدُ (الشائعُ) في ذلكَ الوقتِ في دمشق إبّانَ حكمِ الأيّوبيين.

وعرفَ النّاسُ العزَّ بنَ عبدِ السّلامِ، وكانَ متوسطَ الطّولِ، نحيلاً، نظراتُهُ تقتحمُ المجهولَ، وكأنّهُ يبحثُ عن شيءٍ خفيٍّ فيهِ، يسخرُ ممّا يستحقُّ السّخريةَ، ضاحكَ السّن (كثيرَ التبسّم)، وقوراً (يحترمُهُ النّاسُ لرزانتِهِ وحُلْمِهِ)، عذبَ الحديثِ، منخفضَ الصّوتِ إذا تكلّم، جهيرَ الصّوتِ (مرتفعَ الصّوتِ) إذا خَطَبَ، نظيفَ الثّوبِ، لا يردُّ سائلاً، فإنْ لم يجدْ ما يتصدّقُ به قطعَ جزءاً من عمامتِهِ (هي قطعةٌ من القماشِ يلفُّ بها الرأسُ)، ودفعَ بها (أعطى) إلى سائلِهِ.

وقد كانَ للعزِّ علاقةٌ طيبةٌ مع حاكمِ مصرَ الملكِ الكاملِ بنِ العادلِ شقيقِ صلاحِ الدّينِ الأيّوبيّ، وكان مشهوراً باحتفائِهِ (باهتمامِهِ) بالعلمِ وبالعلماءِ، وقد أرسلَ العزُّ كتاباً (رسالةً) إليهِ، يشكرُهُ على ذلكَ، فردَّ الملكُ الكاملُ عليهِ ردّاً طيّباً، وأوصى أخاهُ الملكَ الأشرفَ صاحبَ (حاكمَ) دمشق خيراً بِهِ.

وانطلقَ العزُّ إلى الأسواقِ، يأمرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ برحمةٍ وحكمةٍ وموعظةٍ حسنةٍ، وشنَّ حرباً لا تعرفُ هوادةً (تساهلاً) على التّجارِ الظالمينِ، وعلى جُباةِ (جمعُ جابٍ، وهو من يقومُ بجمعِ المالِ لجهةٍ ما) الضرائبِ المرتشين، وعلى الجائرين (جمعُ جائرٍ، وهو شديدُ الظّلمِ) ممن يلون أمراً من أمورِ المسلمين (يحكمونَ النّاسَ)، فأحبّهُ النّاسُ، والتفّوا حولَهُ، وقصدَهُ طلاّبُ العلمِ، ودأبوا (استمرّوا) على حضورِ حلقاتِهِ، فأثارَ ذلك حفيظةَ (غضبَ) الكثيرِ من شيوخِ عصرِهِ، فكادوا له (أعدّوا لَهُ مكيدةً) المرةَ تلوَ الأخرى، لكنَّ إيمانَ العزِّ بربِهِ، وإصرارِهِ على موقفِهِ جعلانِهُ ينجو من كيدِهِم، فقرّبَهُ ملكُ دمشق الملكُ الأشرفُ منْهُ، وعيّنهُ شيخَ حلقةٍ في الجّامعِ الأمويّ، وهو أكبرُ منصبٍ علميّ في دمشق، فاختارَ العزُّ الزّاويةَ الغزاليّةَ، حيثُ كانَ الإمامُ الغزاليّ يدرّسُ، وبدأ يدرّسُ طلاّبَ العلمِ، ثم عُيّنَ خطيباً للجامعِ الأمويّ.

وبالأجرِ (الرّاتبِ) الكبيرِ الذي غدا (أصبحَ) العزُّ يتقاضاه لقاءَ (مقابلَ) تدريسِهِ في الجّامعِ الأمويِّ تزوّجَ العزُّ من امرأةٍ فاضلةٍ (صاحبةِ خلقٍ حسنٍ)، وسكنَ في منزلٍ صغيرٍ قربَ الجّامعِ، وأغدقَ بالصّدقاتِ (تصدّقَ كثيراً) على الفقراءِ والمساكين وطلاّبِ العلمِ وأبناءِ السّبيلِ (جمعُ بن السّبيل، وهو المسافرُ المنقطعُ عن أهلِهِ وماله) حتى أنّهُ أنفقَ كلَّ ما يملكُ من مالٍ قد ادّخرتْهُ زوجَتهُ من ثمنِ مصاغِهَا (هي الحُليّ التي تتزيّنُ بها المرأةُ) على الفقراءِ بدلَ أن يشتري به بيتاً أكبر لزوجتِهِ ولأبنائِهِ، وقالَ لها باسماً: إنّه قد اشترى لها منزلاً أكبر في الجنّةِ، ففرحتْ الزوجةُ بصنيعِ (تصرّفِ) زوجِهَا، ودعتْ لَهُ بالبركةِ (الزّيادةِ والنّماءِ).

وفي عام ٦٣٥هـ عُيّنَ بأمرِ المعزِّ من الملكِ العادلِ سلطانِ مصرَ قاضياً للقضاةِ في دمشقَ في عهدِ أخيهِ الأصغرِ الملكِ الصّالحِ إسماعيلَ، وهو منصبٌ لهُ نفوذٌ كبيرٌ. وقد تحلّلَ (تخلّصَ) العزُّ من التقاليدِ البالية (القديمةِ) للقضاةِ، فطرحَ (خَلَعَ) العمامةَ، ووضعَ على رأسِهِ قبعةً من لبّادِ (صوفَ) مصرَ، وهو غطاءُ الرأسِ الذي لا يستعملُهُ إلاّ فقراءُ النّاسِ في مصرَ والشّام، ولم يلبسْ السّوادَ كعادةِ القضاةِ آنذاك (في ذلك الوقتِ)، وقد اشتهرَ بالعدلِ في القضاءِ، وبالجرأةِ في الحقِّ، كما حاربَ كلَّ بدعةٍ (كلَّ مُستحدَثٍ في الدّينِ)، وأماتَ كلَّ ضلالةٍ، وكانَ يقولُ: "طوبى (خيرٌ) لمن تولّى شيئاً من أمورِ المسلمينَ، فأعانَ على إماتةِ البدعِ وإحياءِ السّننِ".

الرحيلُ عن الوطنِ

وقعتْ دمشقُ منذُ موتِ الملك الأشرفِ في مهاوي الظلمِ والفسقِ بعد أنْ تولّى أمرَها الملكُ الصالحُ إسماعيلُ، الذي كانَ يميلُ إلى الصليبيين، فتحالفَ معهم ضدَ ابن أخيه الصّالحِ أيّوب ملكِ مصرَ، وتنازلَ لهم عن صيدا وشقيف وصفد (مدنٍ عربيةٍ)، عندها شَرعَ (بدأَ) العزُّ يندّدُ (يرفضُ) بما فعلَ، وأعلنَ خلعَ بيعتِهِ (رفضَ حكمِهِ لهم) على المنابرِ، وحرّضَ النّاسَ عليهِ، ونبّههُم إلى أنّ التعاملَ مع الصليبيين أو بيعَهُم السّلاحَ حرامٌ، ومنْ يفعَل ذلكَ فقد خانَ اللّه ورسولَهُ، وأُبيحَ سفكُ دمِهِ (قتلِهِ).

فعلمَ الملكُ بأمرِ العزِّ، وغضبَ عليه بشدةٍ، وأمرَ بسجنِهِ، ثم أفرجَ عنهُ شريطةَ أن يرحل من ليلتِهِ إلى مصرَ؛ إذ علِمَ أنَّ عندَهُ رغبةً في تركِ دمشق، ففعلَ العزُّ ذلكَ في عامِ ٦٣٨هـ، وحملَ زوجتَهُ وأبناءَهُ على حمارين، وكان عندها قد جاوزَ السّتين من عمرِهِ، وخرجَ بهم من دمشق، حتى إذا وصل إلى فلسطينَ، أرسلَ إليه الملكُ الصالحُ أحدَ معاونيهِ؛ ليقنعَهُ بالاعتذارِ للملكِ قائلاً للعزِّ: "بينكَ وبينَ أن تعودَ إلى مناصبكَ وما كنتَ عليهِ وزيادةً أن تنكسرَ للسّلطانِ، وتقبّلَ يدَهُ لا غير"، فقالَ العزُّ لَهُ بشموخٍ (بكبرياءٍ): "واللّهِ يا مسكين ما أرضاهُ أن يقبّلَ يديّ فضلاً عن أن أقبّلَ يَدَهُ، يا قومُ أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمدُ للّهِ الذي عافاني مما ابتلاكُم بِهِ"، فقالَ لهُ الوزيرُ: "قد أمرني السّلطان بذلكَ، فإمّا أن تقبلَهُ، وإلاّ اعتقلتكَ"، فقال العزُّ: "افعلوا ما بدا (ما تريدون) لكم".

ولمّا علمَ الملكُ الصالحُ بردِّهِ أمرَ باعتقالِهِ في خيمةٍ قريبةٍ من خيمتِهِ، وكان عندها مرابطاً مع جيشِ الروم في بيتِ المقدسِ (القدسِ)، فكانَ العزُّ يقطعُ (يمضي) اللّيلَ والنَّهارَ بتلاوةِ القرآنِ، والملكُ الصّالحُ يسمعُهُ من خيمتِهِ، فقالَ في ليلةٍ لضيوفِهِ من ملوكِ الفرنجِ (غيرِ العربِ): "أتسمعونَ هذا الشّيخَ الذي يقرأُ القرآنَ، قالوا: "نعم"، قالَ: "هذا أكبرُ شيوخِ المسلمين، وقد حبستُهُ لإنكارِهِ (رفضِهِ) تسليمي لكم حصونَ المسلمينِ، وعزلتُهُ عن الخطابةِ بدمشق، وعن مناصبِهِ، ثم أخرجتُهُ، فجاءَ إلى القدسِ، وقد جدّدتُ حبسَهُ، واعتقلتُهُ لأجلكم". فقالَ ملوكُ الفرنجِ: "لو كانَ هذا قسّيساً (رجلَ الدّينِ المسيحيّ) لغسلنا رجليهِ، وشربنا مرقتَهَا (ماءَ غسيلِهَا)".

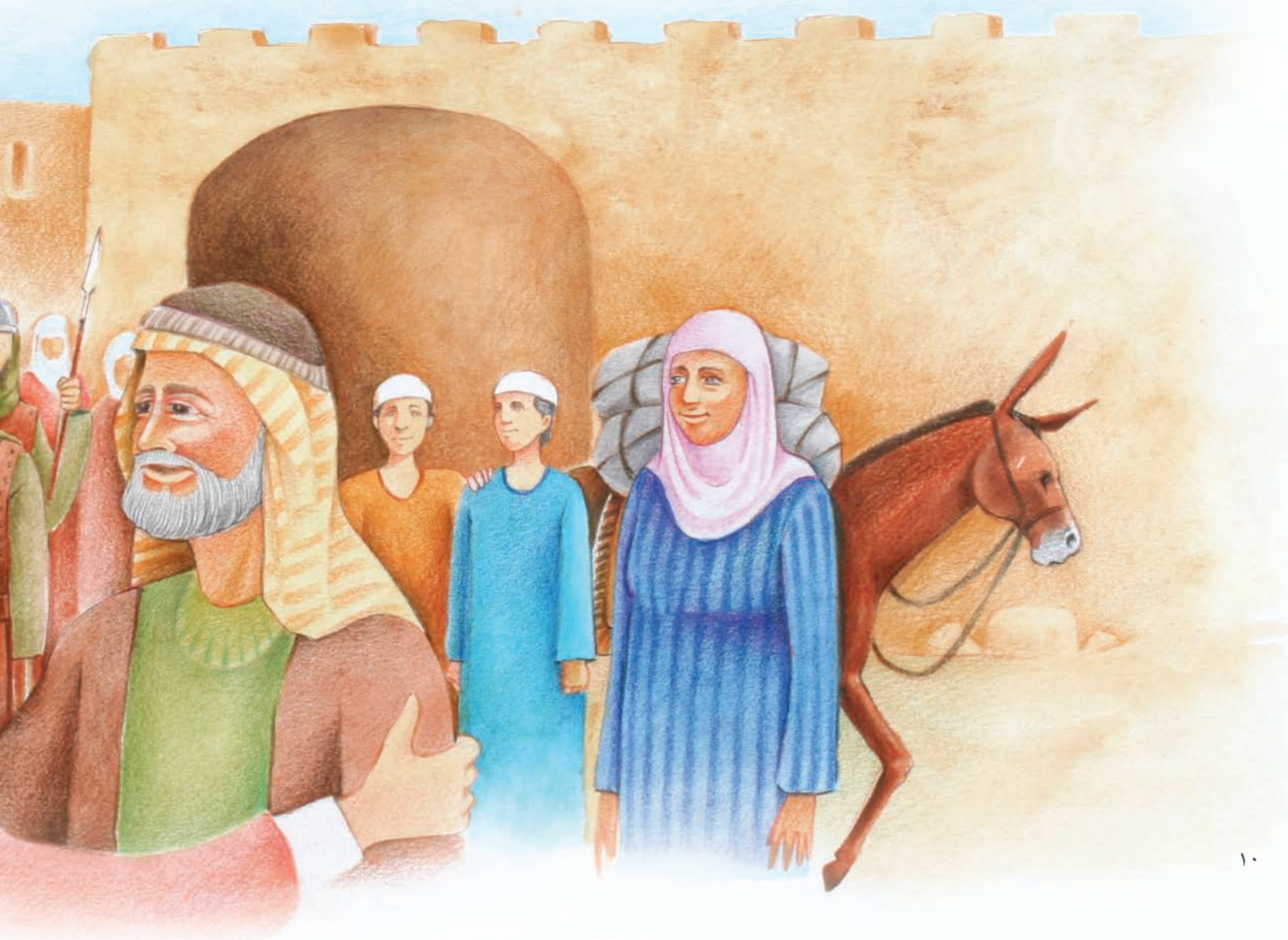

سلطانُ العلماءِ

جاءتْ الجيوشُ المصريةُ بقيادةِ ملكِ مصرَ الجديدِ الملكِ الصالحِ نجمِ الدّينِ أيّوب إلى بيتِ المقدسِ، وهزموا جُندِ الفرنجِ ومن والاهَا (ساعدها) منَ العربِ، وأطلقوا سراحَ العزِّ، فانطلقَ في طريقِهِ إلى القاهرةِ، ووصلَ إليها عامَ ٦٣٩هـ، فقابلَهُ المصريونَ على أبوابِ القاهرةِ بالزّيناتِ وبالهتافِ، وعلى رأسِهمْ الملكُ نفسُهُ وقادةُ الجيشِ، وقد أعدّوا لَهُ ولعيالِهِ الخيلَ المطهّمةَ (الأصيلةَ) بدلَ المطايا (جمعُ مطيةٍ، وهي الدّابةُ التي تُركبُ) المنهكةِ (المتعبةِ)، وسارَ الموكبُ يزفُّ الشّيخَ بالتهليلِ وبالتّكبيرِ والسّلطانُ إلى جوارِهِ، ومن خلفِهِ أمراءُ الدّولةِ والأعيانُ والعلماءُ، وانتهى (وصلَ) الموكبُ إلى حديقةٍ واسعةٍ، تتوسّطُهَا دارٌ فسيحةٌ (متسعةٌ)، كانَ الشّعبُ المصريُّ قد اشتراها، ووهبَهَا هديةً للعالمِ الجليلِ العزِّ بنِ عبدِ السّلامِ.

وقرَّتْ عينُ (سعِدَ) المعزُّ بالإقامةِ في مصرَ، وعيّنهُ السّلطان إماماً وخطيباً لجامعِ عمرو بن العاصِ، ثمَّ قاضياً للقضاةِ (كبيرَ القضاةِ) وقامَ بأمورِ الإفتاءِ في مصرَ، وانقطعَ للعلمِ وللعلماءِ وللتدريسِ وللتأليفِ، فوضعَ كلَّ مصنفاتِهِ (مؤلّفاتِهِ) في مصرَ، فألّفَ في الفقهِ والتفسيرِ وعلومِ القرآنِ والحديثِ النّبوي والسّيرةِ النّبويّةِ الشّريفةِ وعلمِ التوحيدِ والأصولِ والتّصوّفِ. ومن أشهرِ كتبِهِ: "قواعدُ الأحكامِ في مصالحِ الأنامِ (النّاسِ)"، و"مختصرُ صحيحِ مسلمٍ"، و"تفسيرُ القرآنِ العظيمِ" و"الإشارةُ إلى الإيجازِ في بعضِ أنواعِ المجازِ" و"مقاصدُ الصّلاةِ ومقاصدُ الصّومِ".

وطافَ العزُّ في الأسواقِ، يأمرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ، ويردُّ المظالمَ (الحقوقَ المسروقةَ) إلى أهلِهَا، فأحبَّهُ النّاسُ، وقصدَهُ طلاّبُ العلمِ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ (من كلِّ جهةٍ)، فأطلقَ عليهِ طالبُهُ تقي الدّينِ ابنِ دقيقِ العيدِ، وهو من علماءِ مصرَ، لقبَ سلطانِ العلماءِ.

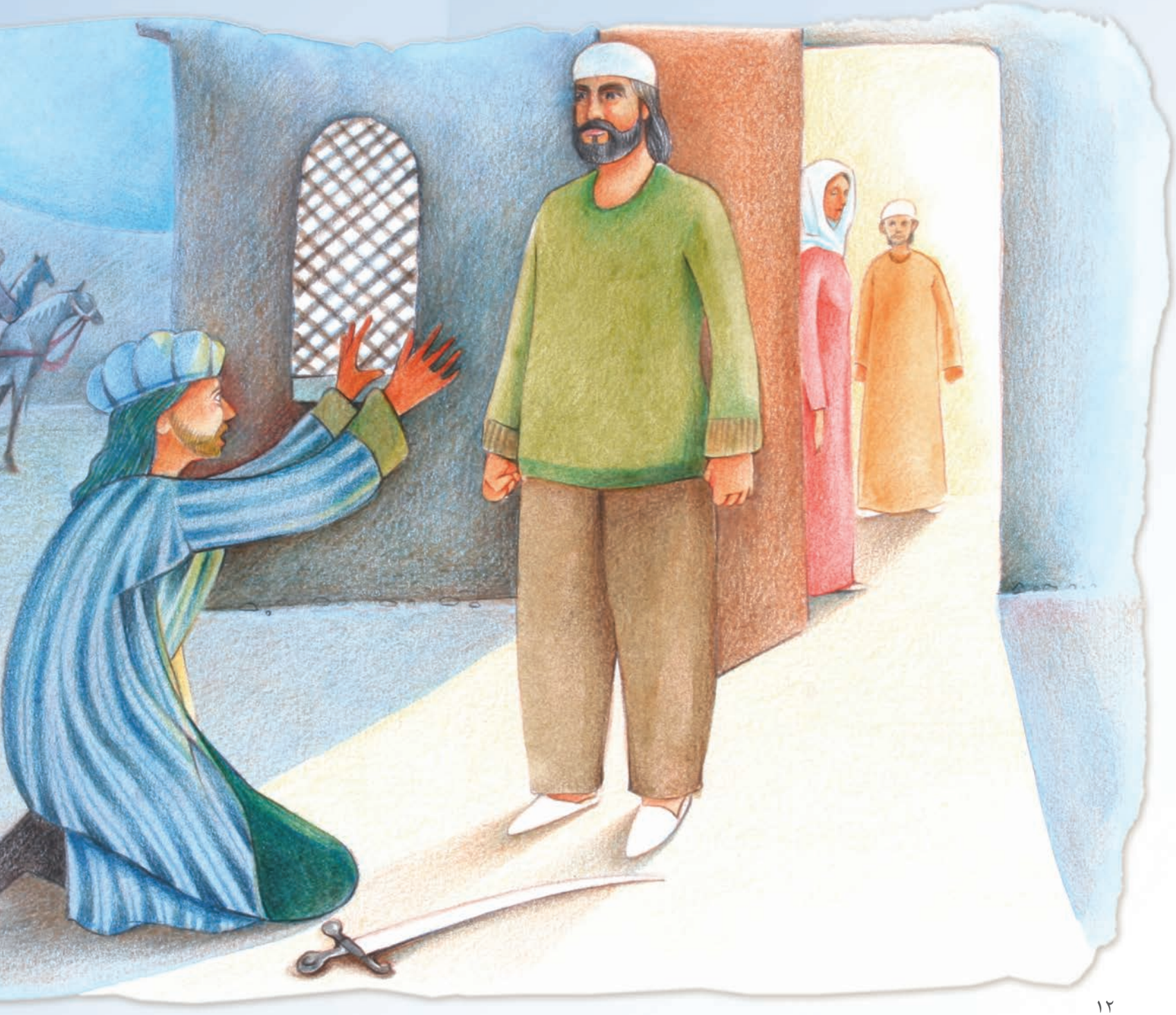

بائعُ الملوكِ

لم يطلُ المقامُ بالعزِّ في مصرَ حتى عرفَ أنَّ أمراءَ البلادِ وقادةَ الجيش ليسوا من أهلِ مصرَ، بل هم مجلوبون (عبيدٌ مشترون)، اشتراهم سلطانُ مصرَ من بيتِ المالِ، وعلّمهُم العربيةَ وعلومَ الدّينِ وفنونَ الفروسيةِ، وعندما شبّوا عيّنهُم في مناصبِهم، فهم أمراءٌ مماليكُ أرقّاء (جمعُ رقيق، وهو العبدُ) لا أحرارٌ، وليسَ لهم حقوقُ الأحرارِ بالبيعِ والشّراءِ والزّواجِ.

عندئذٍ أبطلَ العزُّ كلَّ ما أبرمَهُ (عقدَهُ) المماليكُ من عقودِ البيعِ والشّراءِ والإيجارِ والزّواجِ. وصمَّمَ على أن يُباعَ الأمراءُ المماليكُ في السّوقِ، ويُردُّ ثمنُهم إلى بيتِ المالِ الذي اشتراهم السّلطانُ من مالِهِ، ثمّ يُعتقوا (يصبحونَ أحراراً) بعدَ ذلكَ، وينالون ما ينالُهُ (يأخُذُهُ) الأحرارُ من حقوقٍ، مثلَ البيعِ والزّواجِ والإيجارِ والإمامةِ (يصبحُ حاكماً). وكانَ نائبُ السّلطانِ من المماليكِ، فغضبَ من فتوى (الجوابِ عمّا لا يُعرفُ حكمُهُ منَ المسائلِ الشّرعيّةِ) العزِّ، وقالَ: "كيفَ يُنادي علينا (يعرضُنَا للبيعِ) هذا الشّيخُ؟ ونحنُ ملوكُ الأرضِ! واللهِ لأضربنّهُ بسيفي هذا". وركبَ بنفسِهِ في جماعةٍ من رجالِهِ، وهو مشهرٌ سيفَهُ، وينوي أن يقتلَ العزَّ، وطرقَ بابَ بيتِهِ، فلما رآهُ عبدُ اللّطيفِ بنُ العزِّ، خافَ بشدّةٍ، ونصحَ والدَهُ بالهربِ، لكنَّ العزَّ ابتسمَ، وقالَ لَهُ: "يا ولدي أبوك أقلُّ من أنْ يُقتلَ في سبيلِ اللهِ"، وخرَجَ لنائبِ السّلطنةِ، الذي يبستْ يدُهُ عندما رآهُ، واضطربَ، ووقَعَ هو وسيفُهُ أرضاً، وبكى، وسلّم أمرَهُ للعزِّ يفعلُ بِهِ ما يشاءُ.

لكنّ أمراءَ المماليكِ ظلّوا على رفضِهم لفتوى العزِّ، وشكوه لملكِ مصرَ، الذي ألمحَ (قالَ بشكلٍ غير مباشرٍ) للعزَّ بأنّ لا علاقةَ لَهُ بهذا الشّأنِ (الموضوعِ)، عندها غضِبَ العزُّ أشدَّ الغضبِ، وقالَ: "فيم (لماذا) المقامُ بأرضٍ يُستضعفُ فيها أهلُ الشّريعةِ،

ويُعتدي فيها على القضاءِ؟" ثم حملَ أهلَهُ على حُميرٍ (تصغيرِ حمارٍ)، وحمَلَ متاعَهُ على حمارٍ، وغادرَ مصرَ، فلمّا علمَ أهلُهَا برحيلِهِ، لحقوا بِهِ، فعَلِمَ الملكُ بالأمرِ، وقِيلَ لهُ: "تداركْ (أنقذْ) ملكَكَ وإلاّ ذهبَ بذهابِ الشّيخِ" فخرجَ بنفسِهِ وراءَ العزِّ، وأدركَهُ (وصلَ إليهِ)، ونزَلَ عن فرسِهِ، وتقدّمَ منهُ معتذراً، وقالَ لَهُ: "لا تفارقنا، عُدْ يا إمام، واصنعْ ما بدا لكَ (ما أردتَ)".

وجمعَ السّلطانُ كلَّ الأمراءِ في القلعةِ بأمرِ العزّ (تحتَ تصرّفِ العزِّ)، وعُرضوا في مزادٍ، ونادى الشّيخُ عليهم (عرضهم للبيعِ)، وغالى في ثمنهم، حتى إذا امتنعَ الحاضرون عن المزايدةِ في الثّمنِ لارتفاعِهِ الفاحِشِ (الكبيرِ)، تقدّمَ السّلطانُ، وزادَ في السّعرِ، ودفعَهُ من مالِهِ الخاصِ، لا من بيتِ المسلمين، حتى اشترى جميعَ الأمراءِ المماليك، وأعتقهُم لوجهِ اللّهِ، فأصبحوا أحراراً.

وكم كانَ المعزُّ مهيباً جليلاً وهو ينادي على أمراءِ الدّولةِ واحداً تلوَ (بعدَ) الآخرِ، ثمَّ يبيعهم للسّلطانِ، ليحملَ بعدَ هذهِ الحادثةِ التاريخيّةِ الطّريفةِ (نادرةِ الحدوثِ) لقبَ بائعِ الملوكِ.

أمّا ما قبضَهُ العزُّ من ثمنِهم الفاحشِ فقدّ وزّعَهُ على الفقراءِ وأصحابِ الحاجاتِ من أهلِ العلمِ وطلاّبِهِ، وأقامِ بهِ دوراً لتعليمِ القرآنِ والخطِّ وعلومِ اللّغةِ العربيّةِ.

الجهادُ في سبيلِ الله

ما كادَ العزُّ يستقرُّ في دارِهِ بعدَ بيعِهِ لأمراءِ المماليكِ في السّوقِ حتى هاجَمَ بيتَهُ جماعةٌ من اللصوصِ بتحريضٍ من أحدِ أمراءِ المماليكِ الذين حنقوا (حقدوا) على العزِّ بسببِ فتوى بيعِهِم، وكادَ اللصوصُ أنْ يفتكوا بالعزِّ وبأهلِهِ الذينَ ارتعدوا

خوفاً منهم (شعروا بخوفٍ شديدٍ)، لكنَّ العزَّ قابلهُمْ باللّطفِ وباللّينِ وبالكلمةِ الطّيبةِ، وعدّهم ضيوفاً لا لصوصاً، وقدّمَ لهم طعامَ العشاءِ، وأكرمَ وفادتهُم (حضورهم)، فعادوا عمّا هم عليه (تراجعوا عمّا جاءوا من أجلِ فعلِهِ)، وخجلوا من أنفسِهم، وبكوا بينَ يديّ العزِّ، وطلبوا منهُ أنْ يستغفرَ لهُم، فدعاهُم إلى الصّلاةِ بعدَ الوضوءِ، وصلّى بهم (أمَّ بهم) صلاةَ التّوبةِ، وعفا عنهم (سامحَهم)، ولم يبلغ السّلطانَ بفعلِهِم.

وكانَ منهجُ العزِّ في الحياةِ يتلخّصُ في جملتِهِ: "إنّا نزعُم أنّا من جملةِ حزبِ اللّهِ –عزَّ وجلَّ– وأنصارِ دينِهِ وجندِهِ، والجنديُّ إذا لم يخاطرْ بنفسِهِ، فليسَ بجنديّ".

لذلك لم يكنْ يخشى غيرَ اللّهِ، ولا يقولُ إلاّ الحقَ، ولو كانَ في حضرةِ السّلطان، فقد تصدّى يوماً لموكبِ الملكِ في يومِ عيدٍ، وقالَ لَهُ: "يا أيّوبُ، ما حُجتكَ عندَ اللّهِ إذا قالَ لكَ ألم أبوئ لكَ ملكَ مصرَ ثم تبيعُ الخمورَ؟" فقالَ السّلطانُ: "هل جرى ذلكَ؟" قالَ العزُّ: "نعم، الحانةُ الفلانيةُ تبيعُ الخمورَ، وغيرها من المنكراتِ، وأنتَ تتقلّبُ (تنعمُ) في نعمةِ هذهِ المملكةِ".

فقالَ السّلطانُ: "يا سيدي هذا أنا ما علمتُهُ، هذا من زمانِ أبي"، فقالَ الشّيخُ: "أأنتَ من الذين يقولون إنّا وجدنا آباءَنَا على أمّةٍ؟! (أيّ تقلّدُ من سبقكَ دونَ تفكيرٍ)". فأمَرَ السّلطانَ بإغلاقِ الحانةِ.

وبعدَ أن انصرفَ العزُّ، سألَهُ أحدُ تلاميذِهِ عمّا فعلَهُ، فقالَ الشّيخُ: "رأيتُهُ في تلكَ العظمةِ، فأردتُ أن أهينَهُ كي لا تكبرَ نفسُهُ، فتؤذي"، فقالَ التلميذُ: "أما خفتَهُ؟!" أجابَ الشّيخُ بإيمانٍ عميقٍ: "واللّهِ يا بنيَّ لقدْ استحضرتُ هيبةَ اللّهِ تعالى، فصارَ السّلطانُ أمامي كالقطِّ".

عينُ جالوتَ وهزيمةُ التّتارِ

إبّانَ (في زمنِ) إقامةِ العزِّ في مصرَ داهمَ ديارَ (بلادَ) الإسلامِ زحفان (جيشان) خطيران، أخذا ينهشانِ في جسدِ الدّولةِ الإسلاميّةِ، ويطمعانِ في الاستيلاءِ على (الحصولِ على) مقدّساتِها، أحدهما الصليبيون، والآخر التّتارُ. وقد تصدّى العزُّ لهما بكلِّ ما أُوتي من قوةٍ ونفوذٍ وتأثيرٍ حسنٍ في نفوسِ المسلمين، فألّبَّ (حرّضَ) المسلمين عليهم، وهجرَ حلقاتَ العلمِ، وزحفَ مع المجاهدين إلى المنصورةِ (مدينةٍ في شمالِ مصرَ) حيثُ تصدّتْ جيوشُ المسلمين للصليبيين بقيادةِ ملِكِهم لويس التّاسع، وهزمتهم شرَّ هزيمةٍ، وأسرتْ ملكَهم لويس التّاسع.

كما حرّضَ المعزُّ المصريين وملكَهُم، وكانَ عندئذٍ السّلطان قطز الذي تولّى الحكمَ بعدَ ملكِ مصرَ نجم الدّين أيّوب الذي توفّي في حصارِ المسلمين للصليبيين في المنصورة، على التصدِّي للتتار، فخرجتْ جيوشُ مصرَ عام ٦٥٨هـ لملاقاةِ جيوشِ التّتارِ التي كانتْ قد استولتْ على بغداد عام ٦٥٦هـ وعلى حلب، وعاثتْ فيهما فساداً وقتلاً، ذلك بعدَ أنْ أعدّتْ العدّةَ لذلك بتمويلٍ من السّلطانِ ومن أمراءِ المماليكِ ومن بيتِ مالِ المسلمين، وذلك بقيادةِ الأميرِ قطز.

وكانَ العزُّ عندها عجوزاً في الثمانين، لا يقدرُ على حملِ السّلاحِ، لكنّ جهادَهُ كانَ بتحريضِ المسلمينِ على الجهادِ، والتقى الجيشان: جيشُ المسلمين وجيشُ التّتارِ في منطقةٍ تُسمّى عينُ جالوتَ في فلسطينَ، وهزمَ الجيشُ المصريُّ بقيادةِ قطز جيشَ التّتارَ هزيمةً نكراءَ، لم تقمْ لهم بعدها قائمةٌ.

وفي طريقِ عودةِ الجيشِ المصريِّ إلى القاهرةِ وثبَ (هجمَ) القائدُ بيبرس على قطز، وقتَلَهُ، وجلَسَ على عرشِ مصرَ، وبايعَهُ أهلُ مصرَ إلاّ العزّ الذي رفضَ أن يبايعَهُ (يقبلَ به حاكماً) إلاّ عندما تأكّدَ من أنّهُ حرٌّ قد حرّرهُ سيدُهُ، وأنّهُ لم يعدْ مملوكاً (عبداً).

في حلقةِ العلمِ

وبلغَ العزُّ من العمرِ الثالثةَ والثمانين، وكبرَ أبناؤُه وأحفادُهُ، وأصبحَ ابنُهُ عبدُ اللّطيفِ أحدَ علماءِ مصرَ، وتخرّجَ على يديه أئمةٌ وعلماءُ بعد أن أنفقَ عمرَهُ في طلبِ العلمِ وفي التعليمِ وفي محاربةِ الظّلمِ والانتصارِ للمظلومين.

ومرضَ العزُّ، وغلبَهُ الوهَنُ (الضّعفُ الشديدُ)، وتوقّعَ الموتَ، إذ إنّه كانَ قد تنبّأَ في شبابه بأنَّهُ سيموتُ عندما يبلغَ الثالثةَ والثمانين، لكنّهُ رفضَ أن ينقطعَ عن دروسِ العلمِ. وفي يوم ١٠ من جمادى الأولى عام ٦٦٠هـ طلبَ من أبنائِهِ أن يسندوه؛ ليصلَ إلى دروسِهِ في مدرسةِ الصّالحيةِ التي اعتادَ على التدريس فيها على الرّغمِ من شدةِ وهنِهِ، وشرَعَ يفسّرُ الآيةَ الكريمةَ: ﴿اللّه نورُ السمواتِ والأرضِ﴾ لكنَّ روحَهُ فاضتْ (خرجتْ من جسدِهِ) عندَهَا، وخرَّ (سقطَ) ميّتاً في حلقةِ العلمِ التي أحبَّها، ولزمَهَا طوالَ عمرِهِ.

وخرجَ أهلُ القاهرةِ في جنازتِهِ، وصلّى عليه سلطانُ مصرَ والشّامِ، بل وشاركَ سلطانُ مصرَ في حملِ نعشِهِ، ودُفنَ في سَفحِ جبلِ المقطّمِ (جبلٍ عظيمٍ في القاهرةِ)، وقد قالَ السّلطانُ بيبرس يومَ موتِهِ: "اليومُ استقرَّ أمري في الملكِ؛ لأنّ هذا الشّيخَ لو كانَ يقولُ للنّاسِ: اخرجوا عليه (ثوروا عليه) لانتزعَ (أخذَ) الملكَ منّي".

رحِمَ اللّهُ شيخَنَا الجليلَ المعزَّ بنَ عبدِ السّلامِ، فقدْ كانَ منارةً أنارتْ طريقَ الأمّةِ، وحثّتها (أمرتهَا) على العلمِ الذي صيّرَهُ (حوّلَهُ) من يتيمٍ ضعيفٍ لا حولَ ولا قوةَ لَهُ، يحرسُ أحذيةَ المصلّين إلى منارةِ علمٍ تهدي النّاسَ، وجعلَهُ يهزُّ الشّعوبَ بيمنهِ، والسّلاطينَ بيسارِهِ، فللّه درّهُ (أسلوب دعاء بالخير) من عالمٍ أخلصَ للّهِ عملاً وقولاً، فنصَرَهُ، وخلّدَهُ في سِفْرِ (كتابٍ كبيرٍ) عظماءِ أمتنَا الإسلاميّةِ.

لوّن معنا